

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٦٤-٥١) : ليس للإنسان إلا ما

سعى

لضيالة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٤-١١-٢٠٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أيها الإخوة، لو أن طالباً في أول العام الدراسي، وجاءه من يخبره أن المدرس في آخر العام يعطي الأسئلة مقابل هدية، هل يستطيع هذا الطالب أن يدرس، وفي نهاية العام فوجئ أن الأستاذ نزيه جداً، ومستقيم جداً، ولن يعطي لا تلميحاً ولا تصريحاً، وأن هذا الذي نقل له الخبر كاذب مغرض، ضبيع العام الدراسي.

الآن في آية من سورة النجم يقول الله عز وجل:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلنَّاسَ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩))

لو فهمنا أبعد هذه الآية يمكن أن ننفي مئات القصص، ومئات الأوهام والخرزعلات، والترهات، النبي عليه الصلاة والسلام يقول لابنته فاطمة ولعمه العباس:

((يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله، أنقذنا نفسكما من النار إننا لا أغني عنكم من الله شيئاً، لا يأتوني الناس بأعمالهم وتأتوني بأسابكم))

[متفق عليه عن أبيس هريرة]

تقريباً معظم المسلمين معتمدون على مفهوم ساذج للشفاعة، ويقولون: أمة محمد ﷺ مرحومة، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الكلام الواضح القطعي الدلالة يبين أن كل إنسان يحاسب بعمله. لو أن واحداً عاش مع النبي صلى الله عليه وسلم، واستطاع بطلاقة لسان، ووضوح بيان، وذكاء، أن ينتزع من فمه الشريف فتوى لصالحه، ولم يكن محقاً بها هل ينجو من عذاب الله؟ لا ينجو، معه فتوى من سيد الخلق، قال عليه الصلاة والسلام:

((لعنة بعضكم أن يكون الحنـاجـةـ منـ بـعـضـ، فـإـنـ قـضـيـتـ لأـحـدـ مـنـكـمـ بشـيءـ مـنـ حـقـ أـخـيهـ، فـإـنـماـ أـقـطـعـ لـهـ مـنـ النـارـ))

[أخرجه الترمذى عن أبي هريرة]

دائماً وأبداً الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح.

والله أيها الإخوة، يلقى في بعض الدروس كلام لا أصل له إطلاقاً، هي قصص، مدلولاتها خطيرة جداً، لكن لا أصل لها، أنه حينما يوضع الإنسان في قبره، ويأتي المكان ليسألانه تأتيمهم ضربة من شيخ هذا الميت، يقال لهما: أمثل هذا يُسأل؟ هذا كلام ما له أصل، قال:

((اسْتَعْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ بِالثَّبَيْتِ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ))

[أخرجه أبو داود عن عثمان بن عفان]

هذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام.

أيها الإخوة، من خلال هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠))

(سورة النجم)

هناك أغنياء يموتون، يوهمهم بعضهم أن هناك صدقة تسقط عنه الصلاة، وصدقة أخرى تسقط عنه الصيام، القضية سهلة.

((إن هذا العلم دين فانتظروا عمن تأخذون دينكم))

[الحاكم في المستدرك عن أنس، السجزي عن أبي هريرة]

((ابن عمر، دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذي مالوا))

[ورد في الأثر]

النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيمة يقول:

((أمتى أمتى: " فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعده أو ما بدلوا بعده فأقول سحقا سحقا))

[أخرجه مسلم في كتاب الفضائل عن أم سلمة]

مرة ذكرت أنه بعد فتح مكة، وحول النبي ﷺ عليه القوم، قال له بعض الصحابة: هناك أخت لك تريد أن تلقاءك، هي امرأة عجوز رضعت من حليمة السعدية وقت كان النبي ﷺ يرضع منها، إذا هي أخته من الرضاعة، تروي الروايات أنه قام من مجلسه، وانطلق ليلاقها حيث هي، ويرحب بها أشد الترحيب، ويأتي بها إلى مكانه، ويجلسها مكانه، ويظللها برداهه، ويسأليها عن حالها، ويخيرها بين أن تقيم عنده، وبين أن تلحق بأهلهما ويكرمهما، فلما اختارت أن تلحق بأهلهما أعطاها مئة ناقة، ما هذا الوفاء، فقلت: يا رسول الله، لا تدري ماذا أحدثوا بعده؟ أناس قطعوا أرحامهم، قطعوا علائقهم مع من يلوذ بهم، أناس أسؤالا إلى بناتهم، إلى أمهاتهم، هل تصدق أن دعاوى كثيرة بين الأقرباء، حينما قطعوا أرحامهم بعد ما جاؤوا إلى الدنيا، أو بعد عصور عديدة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((سحقا سحقا))

يا أيها الإخوة الكرام، يمكن أن تنفي قصصاً لا تعد ولا تحصى من هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ)

أما أن تفعل شيئاً مكان شيء، أما أن ينال الإنسان أجراً من دون أن يفعله، لذلك العلماء حينما جاء موضوع حجة البطل، لا تقبل حجة البطل إلا من وصى، هذا الذي لم يوص لو جاء إنسان، وحج عنه هذه الحجة لن يسعى الميت إليها، أما إذا وصى معنى ذلك أنها مقبولة، ولكن استثنى العلماء أن الابن الصليبي إذا حج عن أبيه ولو لم يوص، هذه مقبولة عند الله، ولو لا أن هذا الأب ربي ابنه تربية صحيحة حتى كان ديناً، وحتى كان باراً ما كان له أن يكون كذلك.

أيها الإخوة الكرام،

(وَقَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤))

(سورة الصافات)

(فَوَرَبَكَ لَنْسَالَتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

أعرابي جاء النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله، عظني، ولا تطل فقرأ عليه قوله تعالى:
(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨))

(سورة الزمر)

قال: كفيت، فقال: فقه الرجل.

الآن أنا مضطر أن أضع بين أيديكم حقيقة، هي أخطر حقيقة في العبادات، الإنسان يصلى، والصلاحة لا تكلفه شيئاً، ويصوم، ويحج، ويعتمر، ويؤدي زكاة ماله، لكن حينما سأله النبي أصحابه الكرام: ((هل تدرؤن من المفلس؟ قلنا: المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا ماتع، قال: المفلس من أمتى من يأتي يوم القيمة بصلوة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار))

[رواه مسلم والترمذى عن أبي هريرة رضى الله عنه]

أين الصلاة إذا؟ هذه عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، إن لم ترافقها استقامة لا تصح، ولا قبل، أوجه هذا الكلام للأخوات الكريمات.

((إن فلانة، ذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بمسانها. قال: "هي في النار"))

[رواه أحمد والبزار عن أبي هريرة]

((عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار، قال الله: لا أنت أطعمتها، ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض))

[آخرجه مسلم عن أبي هريرة]

((لَا عَلِمْنَ أَقْوَاماً مَنْ أَمَتَّى يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْتَالَ جِبَالٍ تِهَامَةَ بِيِضاً، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثُوبَانٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! صِفْهُمْ لَنَا، جَلَّهُمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَتَحْنُ لَا تَعْلُمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمَنْ جَدْتُمْ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكُنْهُمْ أَقْوَامٌ، إِذَا خَلُوا بِمَحَارِمِ اللَّهِ، أَنْتَهُوكُوهَا))

[آخرجه ابن ماجه عن ثوبان]

هذه الصلاة، الصيام:

((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

[رواه أحمد في مسنده وصحيف البخاري وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن أبي هريرة]

هذا الصيام، الحج:

((من حج بمال حرام، ووضع رجله في الركاب، وقال لبيك اللهم لبيك، ينادي ألا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردود عليك))

[ورد في الأثر]

بقي الإنفاق:

(فَلْ أُنْفَثُوا طُوعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِثْكُمْ إِنَّكُمْ كُلُّكُمْ قَوْمًا فَاسْقِنُوهُمْ (٥٣))

(سور التوبة)

المشكلة الأولى أن الصحابة الكرام فهموا الإسلام ٥٠٠ ألف بند، ونحن فهمنا الإسلام خمسة بنود، صلاة، وصياماً، وحججاً، وزكاة، ونطق بالشهادة.

أيها الإخوة، كلام سيدنا جعفر كلام بلغ جداً، قال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحيم، ونسيء الجوار، حتى بعث الله فينا رجلاً، نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونحبه، فدعانا إلى الله لنعبدك ونوحدك ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان - الآن دققوا - وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أحمد عن أم سلمة]

الإسلام انضباط، الإسلام قيم أخلاقية، الإسلام صدق، الإسلام أمانة، الإسلام استقامة، الإسلام إخلاص، الإسلام رحمة، الإسلام عفو، هذا الإسلام، فلما فهمنا الإسلام صلاة، وصيام فقط وجوفاء، وفعلنا كل الموبقات، ونحن مسلمون، ألا ترى إلى رمضان كل المعاصي مجموعة في رمضان، ومن أجل ذلك إكراماً لشهر رمضان المبارك، كل هذا إكراماً لشهر رمضان، فلذلك:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَيًّا (٥٩))

(سورة مريم)

ولقد ليقنا هذا الغي، والله أيها الإخوة ما من كلمة تدمي القلب كأن تقول: هان أمر الله علينا فهنا على الله، والله الذي لا إله إلا هو لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه والله ما خرج من مكة، بقي في مكة، أما أن يصل إلى الصين، وإلى مشارف باريس، لأن الإسلام كان سلوكاً وانضباطاً. لما أرسل سيدنا رسول الله عبد الله بن رواحة ليقيم تمر خير لاتفاق بينه وبين اليهود، وأغروه بحلي نسائهم، قال: جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم عندي أبغض من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالت اليهود: بهذا قامت السموات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

إخواننا الكرام، كلمة قاسية، لكن لا بد منها، حينما قال الله عز وجل:

(فَلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

(سورة المائدۃ الآیة: ٦٨)

(شيء) أقل كلمة في اللغة تعبّر عن أقل شيء، إذا ثار الغبار وسط أشعة الشمس ترى ذرات لا وزن لها إطلاقاً، تراها في أشعة الشمس، هذه شيء، يقاس على هذه الآية، ويأيها المسلمين لستم على شيء حتى تقيموا القرآن الكريم، فلذلك هذه الآية:

(وَأَنْ لَيْسَ لِإِنْسَانٍ إِلَّا مَا سَعَى)

هناك خرافات، وإضافات، وترهات، وضلالات، وقصص، ما أنزل الله بها من سلطان، ونتائج باهرة لأسباب صغيرة جداً لا تناسب هذه مع تلك، فنحن نريد أن نكون واقعيين، وشعارنا الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح.

هذه الحقيقة، العبادات التي نحن فيها لا تقبل، ولا تصح إلا إذا رافقتها عبادات شعائرية. مثلاً تجد شخصاً يميل إلى أن يأخذ المال دون أن يقدم جهداً، هل سمع قول النبي لما رأى شاباً يتبع الله في وقت العمل، سأله: من يطعوك؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك، حينما قال النبي الكريم:

((واليد العليا خير من اليد السفلی))

[أخرجه أبو عبد الله وصححه مسلم عن حكيم بن حزام]

حينما قال النبي الكريم:

((ولا فتح رجل على نفسه بباب مسألة يسأل الناس إلا فتح الله عليه بباب فقر))

[أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن عبد الرحمن بن عوف]

صدقوا أيها الإخوة، نحن مفهومنا للدين صلاة وصوم واستقامة، وإنابة، هذا صحيح، لكن يجب أن نفهم الدين عملاً، وإنتجاءً، وتطويراً، وتقوية الأمة، لأن الطرف الآخر قوي جداً، وغني جداً، وذكي جداً، واستطاع أن يفرض علينا إباحيته، وثقافته، وأنا أدعوكم لا إلى التفاؤل الشديد، قد نمنع من هذا الدرس في المستقبل، قد نمنع من أن نحوز القرآن، هكذا يخططون، نهاية الكافر شر من عمله، فما لم نتقو، نحن ضعاف الآن، نحن في محلة كبيرة، كل واحد منا يفكر بعمل صالح، يفكر بعمل يقوى أمتنا، يفكر يطور عمله، يفكر يخفف عن المسلمين الأعباء، يفكر أن يقدم للمسلمين كل الخدمات.

والله أيها الإخوة، حديث شريف أنا أراه هو سر نجاتنا، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنما تنتصرون بضعفائكم))

[رواه أبو نعيم عن أبي عبيدة]

ما معنى هذا الحديث؟ أنت قوي أمامك واحد ضعيف، إذا أكرمت هذا الضعيف أعطيته حقه، أعطيته حاجة، إن كان مريضاً عالجته، وإن كان بلا عمل وفرت له فرصت عمل، وإن كان مظلوماً نصرته، وإن كان عارياً كسوته، وإن كان بلا مأوى هيات له المأوى، وإن كان مهائياً كرمته، أنت الآن نصرت ضعيف، وبإمكانك أن تسحقه، ربنا عز وجل سيكافئك مكافأة من جنس عملك، سينصرك على من هو أقوى منك، ليس هناك طريق كي تنتصر على هؤلاء الأعداء المتغطسين الأقوية إلا أن ننصر ضعفاءنا، هذا ملمح أنا أسميه ملحة توحيداً.

هناك ملمح آخر واقعي، الضعيف حينما ننصره يتسلّم المجتمع، وعندئذٍ يستحيل أن يخرج من الخارج، صار المجتمع قلعة، هذه الأفكار أيها الإخوة يجب أن نعيها وعيًا تامًا، نحن أمام أخطار كبيرة جدًا، لأن الأعداء البعيدين يخططون لتغيير هويتنا، لتغيير ثقافتنا لتغيير ديننا، والعمل يجري على قدم وساق.

فأرجو الله سبحانه وتعالى أن نقوى أنفسنا، وأن نفهم الدين عمل. أمسك النبي يد بعض أصحابه عبد الله بن مسعود، وكانت خشنة، رفعها، وقال: هذه اليد يحبها الله ورسوله.

سيدينا عمر يمشي في بلدة فرأى كل الفعاليات بيد غير المسلمة، فاعتبرهم، فاحتاجوا كما يحتاج أغنياء المسلمين، الله سخر لهم لنا، فقال هذا العملاق الخليفة الراشد: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟ المنتج قوي، والمستهلك ضعيف، أنت عندك مركبة، تعطلت فيها قطعة، لو طالبوك بمئة ضعف ثمنها فأنت تزعم.

نحن عندنا عقود شراء اسمها في الفقه عقود إذعان، بمئة ضعف، هناك دراسة أن المركبة تباع القطعة بثلاثمائة ضعف من ثمنها، اشتري مركبة أنت، علقت، أي شيء تحتاجه ثمنه غير معقول، ثمنها ثلاثة ضعف، قال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟ الله عز وجل يحب العمل. سيدينا عمر يقول: أرى الرجل لا عمل له يسقط من عيني.

والله أيها الإخوة، لما أزور إخواننا المتفوقين بأعمالهم، والله أشعر بانتعاش، أشعر بحماس لا يوصف، دائمًا المسلم الضارب على الآلة الكاتبة، أو الآذن، هذا المسلم؟ لم لا يكون صناعيًّا كبيرًا؟ لم لا يكون تاجرًا كبيرًا، مزارعًا كبيرًا، أستادًا جامعيًّا كبيرًا، طيبًا من أعلى درجة ، لماذا؟ النبي طلب النخبة، قال: الله أعز الإسلام بأحد العُمرَين، طلب نخبة يحملون معه، اسمعوا مني هذه الكلمة، والله الآن لن يحترم دينك إلا إذا تفوقت في عملك، تتفوق، يربطون التفوق بالإسلام. نحن اليوم من فضل الله أكرمنا طلابًا كثيرين متفوقين في الشهادة الثانوية، ٢٣٧ من ٢٤٠ عدد طلاب كبير جداً من المتفوقين، أنا والله أعتز بهم، وهذا هو الدين، الناس الجهلة يفهمون أن التدين يعني التخلف، وهناك عبارة لا سمح الله ولا قدر أن تكون كذلك تقال عنا في الغرب: أن هذا المسلمين أي بي إم، أي إن شاء الله، بي بكرة، إم معلش، دائمًا يسوف، ولا يدقق بعمله، لا بمواعيده، لا بإنجازه، لا بإتقان عمله، دائمًا يماطل ويقول لك: إن شاء الله، ليس هذا هو المسلم، المسلم صادق الوعد.

فأرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآية:

(وَأَن لَيْسَ لِلنَّاسَ إِلَّا مَا سَعَى)

هذا الدين يجب أن يكون قويًا.

أقول لكم هذه الكلمة: هناك قوة الحق، وهناك حق القوة، الآن بالعالم كله القوي على حق ولو ظلم، لو قتل، لو أباد، لو أباد مئات الآلاف، لو هدم مئات المساكن، لو جرف المزارع، لو هدم الآباء، لأنه قوي على حق، متى يكون للحق قوة؟ الآن قوة الباطل، مadam قويًا يدعى أنه على حق .

فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يرينا أمتنا وهي قوية، وهذا يقوم على سواعدكم، وكل واحد مسؤول عن هذه الأمة، الآن أنت الطالب تفوقت خدمت أمتك، تفوقت وقدمت للأمة مخترعًا، أو إنجازًا أو حلًاً لمشكلة، الصانع أتقن عملك، ونافس البضاعة الأجنبية.

والله بعض المسلمين تباع بضاعتهم في أوربة وفي أمريكا، هذا شيء يرفع الرأس، طور عملك، والله معك، فقط تحرك، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، كل واحد يعاهد نفسه، يقدم شيئاً للأمة، هذا الشيء يعود عليك، لكن يطور نفسه فيتفوق في دراسته، يتقن صناعته، يتقن تجارته، يضع نفسه في القيمة حتى تقوى الأمة في مجموعها به.

والحمد لله رب العالمين